الثعبان ودلالاته في المغرب القديم
The Snake and its Significances in the Ancient Maghreb

سليم سعيدي(*)
جامعة 8ماي 1945 قالمة salimsaidi215@gmail.com

تاريخ الاستلام: 03 /2020/10 تاريخ القبول:18 /2020/11

ملخص:

تتناول هذه الدراسة أهم الدلالات الرمزية التي يحملها الثعبان في بلاد المغرب القديم، والتطرق لأصولها المحلية والأجنبية، وما يلفت الانتباه هو تعدّد دلالات ورمزيات هذا الزاحف وتناقضها في نفس الوقت وفي مختلف الحضارات، إذ جمع ما بين الخير والشر والحياة والموت، إذ كان أحيانا بمثابة إلها مقدّسا، وأحيانا أخرى مرتبطا ببعض الألهة والأبطال الأسطوريين: كباس (Bès) وجلجامش وزيوس وأسكولابيوس (Asklépios) وهيجي (Hygie) وأشمون (Eshmun)...، كما كان رمزا للخلود والحماية والصحة والشفاء والخصوبة، ورمزا للخطيئة حسب الكتب السماوية، وقد خُلقت عدة أساطير حوله تدل على حجم الرهبة والخوف الذي بثّهما في الإنسان، ومازالت بعض المعتقدات المتعلقة بالثعبان لحد الآن في موروثنا الشعبي.

الكلمات الدالة: الثعبان؛ المغرب القديم؛ الشفاء، الخصوبة؛ الخلود.

Abstract:

The present study aims at sheding light on the most significant symbolic connotations releted to the snake and its local and foreign origins in the ancient Maghreb. What draw the attention is the variety connotations and symbols of this reptile and their contradiction at the same time in different civilizations. It conbines good and evil, life and death. It was considred like a sacred God, and sometimes was associated with some Gods and mythical heroes, such as Bass, Gilgamesh, Zeus, Asclepius

(*) المؤلف المرسل: سليم سعيدي: salimsaidi215@gmail.com

(Asklépios) and Ashmun. It was also a sign of immortality, protection, health, healing and fertility, and a symbol of sin according to the divine books, and many myths have been created around him. It indicates the amount of dread and fear that spread in man, and some beliefs related to the snake are still exist in our popular culture.

The Abstract: The Snake, Ancient Maghreb, fertility, healing, immortality.

1.مقدمة:

يُعتبر الثعبان من أهم رموز الخيال البشري، إذ تكشف لنا الميثولوجيات العالمية استمرارية الرمزية الثعبانية وتعدّدها، منذ العصور القديمة إلى غاية العصر الحديث وفي مختلف الحضارات[1]، ومن أهمّ ما يجدر ذكره هو تناقض دلالاته أحيانا حتى داخل الحضارة الواحدة، حيث يُمكن أن يرمز هذا الحيوان للقوى الشريرة والضارة من خداع وسحر وشؤم، كما يمكن أن يرمز للقوى الخيّرة والنافعة[2].

ويزخر تراث الشرق الأدنى القديم بالعديد من الملاحم والأساطير التي تتحدّث عن غرائب الثعابين وأخطارها المُحدّقة بالإنسان، ففي مصر الفرعونية يحتوي مجمع الآلهة فيها لأكثر من ثلاثين إلها مرتبطا بإحدى أنواع الثعابين خاصة الكبرى والمقرنة، كما قاموا بتحنيط الثعابين، حيث كان المصريون مفتونين بهذا الحيوان السري الذي يغيّر جلده كل سنة، فكثيرا ما برزت صور رؤوس الملوك وهي مزيّنة بالحيّات المقدّسة الكوبرا (Uraeus) التي أُعتبرت رمزا للانتصار على قوى الشر، والتي تحمي الملك من القوى المُؤذية المرئية والخفية ورفيقة الإله الشمسي رع[3].

وفي الحضارة السومرية ارتبطت ملحمة كلكامش برمزية الثعبان لمعالجة مشكلة الموت والبحث عن الخلود التي لازمت النفس البشرية بشكل دائم وعُولجت بشيء من الفلسفة والسحر الشاعري، وكان هذا الحيوان في المخيال السومري رمزا للشر والذكاء،[4] وفي بلاد آشور صُوّرت بعض

الآلهة وهي تخنق ثعابين بيديها كرمز لانتصارها على القوى المُؤذية، وتظهر تيامات في ملحمة نشأة الكون الكلدانية كمصدر للموت والخطيئة في شكل ثعبان ضخم[5]. ومن هنا نتساءل: ما هي أهم الدلالات التي يرمز لها الثعبان في منطقة المغرب القديم؟ وما هي أصولها؟ وما هي أهم الآلهة التي ارتبط بها؟

2.الثعبان حيوان مقدس:

تُعدّ الثعابين حيوانات مّقدّسة لدى الأفارقة القدامى أو على الأقل محلّ تبجيل منذ عصور ما قبل التاريخ كما تشير إلى ذلك بعض النقوش الصخرية لخوفهم من لدغاتها المميتة، على الرغم من أنّ تمثيلها على الصخور كان نادرا جدا مقارنة بباقي الحيوانات، ومن أمثلة ذلك نذكر موقع تيمسيت قرب غدامس جنوب غربي ليبيا، وكذلك في منطقة الجنوب الوهراني، وفي واد جرات بالصحراء الوسطى حيث صُوّرت أصلة (أفعى كبيرة) يرى لوكيلاك أنّها كانت محلّ عبادة، ونفس الأمر بالنسبة لموقع تي ياراغنين (Ti-Yaraghnin) بالطاسيلي الذي يُصوّر لنا أحد أنواع الثعابين الخرافية وتتميّز بقرنين مُقوّسين نحو الأمام **(انظر الشكل1)**[6].

وفضلا عن المصادر المادية تشير بعض المصادر الكتابية لكثرة الثعابين وتنوّعها وكبر حجمها في المغرب القديم[7]، وقد أعاب القدّيس كبريانوس على سكان قرطاج عبادتها خلال القرن الثالث للميلاد، لأنّها من العبادات الوثنية التي حرّمتها الديانة المسيحية، وهذا يؤكّد عبادة الأفارقة للثعابين، وخلال العصر القرن الرابع كان في تيبازة صنم يُجسّد ثعبانا برأس من ذهب كان يُقدّسه السكان فقامت قدّيسة تُدعى سالسا (SALSA)[8] برميه في البحر[9].

الشكل(1): ثعبان خرافي بالطاسيلي ناجر

D'Huy (J.), op.cit,p 95.

واستمرت عبادة الثعابين لدى الأفارقة طوال العصور القديمة وهذا ما تُؤكّده الأنصاب الإهدائية اللاتينية الكثيرة والمكرّسة لعبادة هذا الحيوان تحت اسم (Dracon) من نوميديا حتى موريطانيا، ومن أهمها نذكر: نوملولي، سيرتا، قيصرية، أكوا فلافيانا، كالما، مادور، عين قلعة جنوب تغنيكا، والموقع الأخير ليس بعيدا عن نهر مجردة حيث قتل القائد الروماني ريغولوس[10] وجنوده في هذا المكان ثعبانا ضخما في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد[11].

وتواصل تقديس الثعابين خلال العصور الوسطى أو على الأقل احترامها على الرغم من انتشار الإسلام الذي يُحرّم مثل هذه الطقوس الوثنية، وفي هذا يذكر البكري[12] رواية غريبة خلال القرن11 للميلاد، تتلخّص في أنّ سكان منطقة تكرور وهم زنوج بجنوب المغرب الأقصى كانوا يعبدون ثعبانا ضخما يضعون له جفان الطعام والشراب واللبن، وإذا أرادوا إخراجه من المغارة تكلّموا وصفّروا له كلاما وصفيرا خاصا فيخرج لهم، ويضيف لنا رواية أخرى أسطورية تتحدث عن دور الثعبان في اختيار

الحاكم ومدة حكمه.

3.الثعبان رمز الخصوبة والحماية:

يظهر الثعبان في الكثير من المشاهد مرتبطا ارتباطا وطيدا برمز من رموز الخصوبة أو بأحد الآلهة المانحة لها، ولا شك أنّ هذه الميزة تعتبر شكلا من أشكال البعث وتجدّد الحياة، لأنّ آلهة الخصوبة في معظمها تموت لتُبعث من جديد، حيث يرمز موتها للقحط ولفصول الجفاف، بينما يرمز بعثها عن فصل الربيع المثمر بما يحمله من نبات وثمار، ومن الرموز الدّالة على الخصوبة اقتران الثعبان بقرن الوفرة الرمز الدائم للخصب وتجّدد الحياة، كما كان هذا الزاحف بمثابة إله يحمي الحرث والنسل والمسؤول على النماء، وكان خروجه من باطن الأرض وهو نفس المكان الذي يخرج منه النبات المثمر ربّما حرّك خيال البشر ومن سبقوهم لربط الثعبان بالخصوبة التي كان مصدرها الأرض، إذ أنّه يخرج من حيث تخرج الخيرات[13].

ونلاحظ أنّ الثعابين في منطقة الصحراء قد رُسمت على الفن الصخري أحيانا بأشكال خرافية كأن تتّخذ رؤوس حيوانات أخرى كالخنازير أو الطيور، كما تتزيّن رؤوسها أحيانا بريش الطيور، ويفسّر جوليان دييه (Julien D'Huy) هذه المشاهد بأنّها تعبّر عن بدايات ممارسة الإنسان الزراعة والحاجة لتكاثر قطعان الماشية، أمّا الأفاعي القرناء فترمز في رأيه لمنابع الماء الدائمة الجريان التي كان السكان في أمسّ الحاجة إليها في عصر عرف بداية الجفاف الذي شهدته منطقة الصحراء على وجه الخصوص[14]. ويُعلّق هنري لوت على أحد صور الثعابين بموقع جبارين بأنّه يُجسّد صورة الإله على الأرض، وأنّه مُكلّف بمراقبة القطعان وضمان نمائها وسلامتها من الحيوانات المفترسة[15]، كما صُوّرت الثعابين على الفن الصخري بمنطقة قسنطينة مرتين فقط، واحدة بموقع الهرية وأخرى بموقع شعبة الحولسة، ويُفسّر لوفابفر تصويرها بالأسباب والسحرية[16]. ومن هنا يتضح لنا أن تصوير الثعبان على الفن الصخري كان لدلالات دينية بحتة بتقديسه كإله ينفع ويضر ويحمي ويمنح الخصوبة للبشر والحيوان والنبات.

وقد كانت الثعابين لدى البونيين رمزا للحماية وذات دلالة سحرية وتعويذية، ولهذا برزت على بعض اللقى البونية كالحلي والعملات

والشفرات والأنصاب، منها نصب عُثر عليه بتوفات[17] سوسة مُكرّس للإله بعل حمون يبدو فيها هذا الأخير جالسا على عرش ومُحاط بحيّتين مُقدّستين لحمايته[18]، وتُصوّر بعض العملات القرطاجية ثعبانا بستة خيوط أشعة تعلو حصانا واقفا[19]، كما برزت صور قرص مُجنّح وهو مؤطّر بحيتين مقدستين كرمز للإله المصري حورس الذي يحلّق في السماء، ومُثّلت صوره فوق أبواب المعابد والقصور المصرية والبونية من أجل منع دخول الأشرار والقوى المؤذية، ويُعتبر هذا الموضوع إحدى التأثيرات المصرية التي دخلت العالم البوني عبر المدن الفينيقية[20]. ويُصوّر أحد الأنصاب المكرّسة للإله ساتورن خلال العصر الروماني ثعبانا وهو يلتف حول مذبح ليتغذّى على القرابين الموضوعة فوقه كجن أرضي ليمنح الخيرات والبركة[21].

ويحتلّ الثعبان في التراث الشعبي للأفارقة من خلال بعض الأساطير مكانا بارزا، حيث يُعتبر هذا الحيوان عندهم كجنّ مكان (Genius loci)، أي جن حامي لكامل المنطقة خصوصا للمناطق الرطبة والعيون والحمامات، فقد كان لكل منبع مائي جن خاص به في شكل ثعبان ليكون بمثابة الحامي له وللبيت والأراضي الفلاحية، والشافي والضامن للخصوبة[22]، والحارس للكهوف والكنوز المطمورة، ولهذا وجب على السكان عدم قتل الثعابين المسالمة خاصة تلك التي تعيش داخل البيوت باعتبارها حيوانات مُقدّسة، لكن إذا كانت ثعابين سامّة فيجوز القضاء عليها لأنّها تُجسّد الأرواح الشريرة، ولا يستبعد كامبس (Camps) أنّ تعود أصول هذه المعتقدات لعصور ما قبل التاريخ.[23] وجاءت رمزية الحماية من كون الثعابين تتغذّى عن القوارض في الحقول ومخازن الغلال وحول المنزل، وبالتالي تحميها من هذه الحيوانات والحشرات المفسدة.[24]

ويبدو أنّ هذه المعتقدات لم تختف نهائيا من عادات وتقاليد سكان المنطقة حاليا، إذ بقيت مُترسّبة في أعماق الوعي الجمعي لسكان المنطقة، من ذلك أنّ لها رمزية مرتبطة بالانبعاث والقوّة التخصيبية والضامنة لاستمرارية النسل، حيث تقصُد النساء العاقرات بعد منتصف الليل بعض الزوايا وتتوسلن للولي داخل القاعة الوسطى للزاوية أو إحدى ملحقاتها ويقمن بلمس الثعبان الموجود في الداخل واستعطافه بعبارات التوسّل اعتقادا أنّه جن سيد وحارس للأماكن خاصة المقدّسة منها، أمّا النساء في منطقة سيدي بو عبد الله فينمن على التراب قرب أحد المزارات أو الزوايا ويضعن

حزامهن داخله ويعدن في الليل وكلّهن أمل في رؤية الثعبان الخيّر من أجل نيل البركة والحماية والسعادة وأن يُرزقن بأولاد صالحين أو أن يشفين من الأمراض[25].

4.الثعبان رمز للصحة والشفاء:

على الرغم من كون الثعابين حيوانات مؤذية ومخيفة، فقد نظرت إليها الشعوب القديمة نظرة خيرة، لأنّ الثعبان يُعرف عنه بأنّه مصدر السم والترياق في آن واحد، أي أنّه مصدر الداء والدواء، فكما له القدرة على النفع له القدرة على الضرر، والترياق يوحي بقدرته على تحقيق الشفاء[26] وتجديد الحياة ومعتقدين أنّ الثعابين تجدّد شبابها ولا تموت أبدا، وذلك بفضل قدرتها على تغيير جلدها في مواسم معينة وتمتّعت بالخلود مقابل تم حرمان الإنسان منها[27].

ومن الممكن أن يكون سبب ارتباط الثعبان بالعلاج والتجدّد إلى اعتقادهم بأنّه يعرف سر النباتات المانحة للحياة والمعرفة والخلود، في الوقت الذي يُعتمد فيه العلاج على مهارة الطبيب في معرفة خواص وأسرار الأعشاب مصدر الدواء، ومن هنا كانت معرفة الثعبان لسر نبتة الحياة يجعله متصلا بالعلاج، وهذا ما تشير إليه ملحمة جلجامش – كما سبق ذكره - والكتب المقدّسة التي تتحدّث عن قصة الخطيئة ودور الثعبان فيها[28].

ومن هنا كان الثعبان في المعتقدات الإغريقية والرومانية الرفيق المعتاد لإله الطب الإغريقي أسكليبيوس (Asklépios) وابنته هيجي (Hygie) ربة الصحة[29] ورمزا لأسكولاب (Esculape)[30] إله الطب عند الرومان[31]، ولهذا لا نستغرب أن نراه كثيرا منقوشا في المواقع القريبة من الحمامات ومنابع المياه بشكل عام، لارتباط الماء بالعلاج والاستشفاء، ولأنّ الماء كذلك كان من الأشياء المُقدّسة لدى أغلب الشعوب القديمة[32].

وتجدر الإشارة هنا، أنّ عبادة الإله أسكولاب قد انتشرت وزادت شعبيتها في مختلف أنحاء الإمبراطورية ومنها منطقة المغرب القديم بفضل الجيش ومختلف موظفي الإدارة والبرجوازية الإدارية وكذلك رجال الدين، وهذا ما تدلّ عليه الكثير من النقوش اللاتينية الإهدائية والتماثيل التي تجسّده خصوصا في المدن الحضرية الكبرى والقديمة التي مسّتها مظاهر الرومنة كالحمامات ومنها: قرطاج، تفاست، كالما، مادور، أويا، ولبدة الكبرى...[33].

وقد ربط الفينيقيون والبونيون الثعابين ببعض الآلهة الخيّرة منها الإله شدرافا الذي عُبد على الساحل السوري الفلسطيني منذ الألف الأولى قبل الميلاد، كما انتشرت عبادته في العالم البوني وكان بمثابة إله الخصب والشفاء وحامي الإنسان من خطر الحيوانات المفترسة والسّامة كالأسود والعقارب[34]. غير أنّ الإله أشمون كان أكثر إله فينيقيا وبونيا مرتبطا بالثعبان، وكان أيضا بمثابة الإله الشافي والحامي والمسعف لدى الفينيقيين والبونيين، وهو يُماثل الإلهين الإغريقي أسكليبيوس والروماني أسكولاب في الوظيفة، فقد عُثر على أكثر من سبعمائة كلمة قرطاجية مركّبة تضمّ اسم الإله أشمون، كما اكتشفت ستة نقوش بونية تذكر معابده في منطقة المغرب القديم، وهذا يشير إلى مدى اتساع عبادة هذا الإله.[35]

فهل يمكن اعتبار هذا التشابه بين الإلهين الإغريقي أسكليبيوس والفينيقي البوني أشمون في الوظيفة تأثّر الثاني بالأول؟

يمكن القول أنّه بعد العثور على تماثيل مصنوعة من العاج ونقوش تُصوّر الإله المصري باس (Bès) حاملا ثعبانا في كل يد من يديه في فينيقيا، ونقوش أخرى له بقرطاج، أي تشير للإله باس كإله للشفاء في مصر وفينيقيا وقرطاج، فمن هنا يُمكن الجزم بأنّ أشمون في وظيفته كإله للشفاء لم يكن متأثّرا بالمعتقدات الإغريقية أو الرومانية[36]، على الرغم من انتشار عبادة الإله أسكولاب في المغرب القديم خلال العصرين البوني والروماني، وبالتالي نستخلص أنّ الإله أشمون هو إحدى التأثيرات الحضارية المصرية على الفينيقيين والبونيين، بعد أنّ ماثلوه بالإله المصري باس.

ويبدو أنّ عبادة الإله أشمون كإله للشفاء في المغرب القديم، قد استمرّت خلال العصر الروماني، فمع بداية القرن الثالث للميلاد أصدر الإمبراطور الروماني سبتيموس سيفيروس (193- 211 م) - ذو الأصول الأفريقية - قطعة نقدية بمدينة قرطاج صوّر على أحد وجهيها صورة الإله الفينيقي البوني أشمون الذي ظهر فيها بملامح شابّ غير ملتح، ويحمل في يده اليمنى عصا يتّكئ عليها ويلتفّ حولها ثعبان، ويحمل بيده اليسرى فأسا، كما يلتفّ على قدميه ثعبانان لهما قرون، فارتباط الثعابين مع الإله أشمون يؤكدّ على طبيعته كإله للصحة والشفاء(**انظر الشكل2**)[37]. ولا نعرف إذا ما كان هذا الإمبراطور قد تبنّى عبادة هذا الإله بحكم أصوله الإفريقية أم أنّه

حافظ فقط على معتقدات سكان قرطاج ذات الأصول البونية. لكن هل كان للأفارقة إله للصحة والشفاء خاص بهم؟

الشكل(1): الإله أشمون على عملة سبتيموس سيفيروس

- Babelon (E.),op.cit, p232.

تشير نقيشة "الآلهة السبعة" التي عُثر عليها في مدينة باجة التونسية إلى ارتباط الثعبان بالآلهة المحلية وهذا من خلال الإله ماكوركوم (Macurgum) [38] الذي يبدو جالسا ويتكئ على عصا يحملها بيده اليسرى ويلتفّ حولها ثعبان على غرار الإله الروماني أسكولاب، ومن الممكن أن يكون هو الاسم الإفريقي للإله الفينيقي البوني أشمون، وبالقرب منه نرى صورة الإلهة فيهينام (Vihinam) ربة الخصوبة[39].**(انظر الشكل3)**

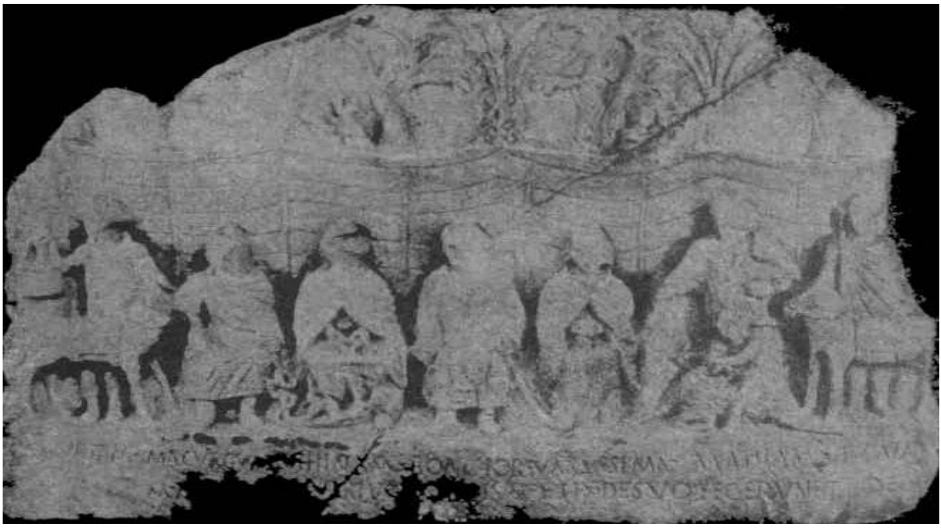

الشكل (3): نقيشة الآلهة السبعة

Camps (G.), op.cit, p137.

وترى نصيرة بن صديق[40] في تجاور الإله ماكوركوم بالإلهة فينيهيام في نقيشة "الآلهة السبعة" والتي سبق ذكرها، هو تجاور لإله الشفاء بإلهة الخصوبة، التي يُمكن أن تكون المثيل الأفريقي للثنائي الإغريقي- الروماني أسكولاب وهيجي، وبالتّالي نؤكّد على وجود إله محلّي للصحة والشفاء لدى الأفارقة القدامى، وهذا ما ساعد وساهم في انتشار عبادة الإله أسكولاب في المغرب القديم خلال العصر الروماني بشكل كبير، ولا نستبعد أن يكون هناك دمج بين الإلهين الروماني والإفريقي. ويُشير الباحث المغربي عبد العزيز بلفايدة[41] إلى قصة قبائلية حديثة تروي أنّ هناك جن اسمه ماكور (Maqur) أي (الكبير) يرتبط بمنبع يجري منه الماء، علما أنّ الكثير كان يقصد هذه العيون من أجل الاستشفاء، فمن الممكن أن يكون قد بقي هذا الإله أو الجن حاضرا في المخيلة الشعبية حتى الفترة الحديثة دون أن يختفي.

5.الثعبان رمز جنائزي وجهنمي:

تعتقد الكثير من الشعوب القديمة أنّ الثعبان هو إحدى الصور التي تتقمّصها أرواح الموتى، حيث كانت روح الميت تستمر في البقاء في صورتها الجديدة في هيئة هذا الحيوان الذي يعبّر عن تجدّد حياة الميت، واعتقدوا أنّ الثعابين تجدّد شبابها ولا تموت أبدا، وذلك بفضل مقدرتها على

تغيير جلدها في مواسم معينة، وبالتالي تتمتّع بالخلود بالمقابل حُرم البشر من هذه الميزة. وكان للبيئة التي يعيش فيها الثعبان أثر كبير في بناء بعض الأفكار عنه، فخروج الثعبان من الشقوق والتجاويف الأرضية ومن داخل القبور أو اتّخاذه كسكن له، قد أوحى للقدامى بأنّ روح الميت قد تقمّصت شكل الثعبان، وخرجت من قبرها، ويوحي تغيير الجلد بأنّه يعرف سر تجدّد الحياة[42].

واعتبر البونيون أنّ هذا الزاحف له دلالة جهنمية ورمزا للخلود، ولهذا فقد جسّدوه على بعض اللقى المادية كفصوص الخواتم والجعارين وشفرات الحلاقة بقرطاج، ومن أهمّ تلك اللقى نشير لفص خاتم له دلالة أخروية عُثر عليه داخل أحد قبور سانت مونيك بقرطاج يعود للقرن الثالث قبل الميلاد، ويُصوّر ثعبانا أمام سيّدة جالسة على عرش وترفع يدها[43] اليسرى نحو الأعلى في وضعية تعبّدية أمام علامة الربة تانيت، ومن المُمكن أن تكون تلك السيّدة هي ربة حامية ومُنقذة للموتى، وبالتالي فهي الربة تانيت، وقد تكون الربة المصرية إيزيس أو الربة الفينيقية البونية عشتارت للدلالة للحياة السعيدة في العالم الآخر، فهذه الربات الثلاث كنّ مقدّسات في العالم البوني، خصوصا خلال المرحلة المتأخّرة حتى يضمنّ للميّت الحماية والسلام في رحلته نحو العالم الآخر[44].

كما عُثر على أنصاب بونية تبدو عليها تأثيرات مصرية واضحة تتمثّل في تصوير الحيّة المقدّسة وهي مُجنّحة من أجل حماية الميت من كل شرّ ومن كلّ القوى المؤذية سواء كانت مرئية أو خفية، وتكون أحيانا مرتبطة بالقرص الشمسي كشعار الانتصار على قوى الشرّ وكطلسم للخلود والبعث من جديد[45]. ولهذا كان الغاليون يضعون مع الموتى بيض الثعابين معتقدين أنّ ذلك يحمي أرواح الموتى، ونفس الشيء مع تصوير الثعبان بشكل لولبي الذي يُعبّر كذلك عن القوّة الحيوية التي تخرج من الأعماق والتي يبحث عنها بنفسه[46].

كما أُكتشفت شفرة حلاقة بأحد قبور أرض الخرايب بتونس تحمل على وجهها صورة شيخ ملتحي يمشي ويحمل في يده اليسرى ثعبانا، من المُمكن أن يكون صورة الإله بعل حمون، لاسيما أنّ هذا الأخير يُصوّر أحيانا بلحية كثّة[47]، كما تُعتبر الثعابين صفات للمعبودة الجهنمية القادمة

أيضا من منطقة إلوسيس (Eleusis) في بلاد الإغريق حيث تجرّ الثعابين عربة الربة الإغريقية ديميتير التي انتشرت عبادتها في قرطاج منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد[48].

أمّا الأفارقة فقد اعتقدوا أنّ للثعبان نفس الرمزية والدلالة المعروفة لدى البونيين لهذا كثيرا ما تُنقش أو تُرسم صُوره على جدران بعض القبور الميقاليتية كحوانيت بني يسلا ولطرش وسيدي زيد قرب زغوان، وربطوها بالآلهة الجهنّمية والصحيّة، حتى يحمي الميّت في قبره، كما كان شعارا للخلود والتجدّد ورمزا للحياة فضلا عن دلالاته التعويذية[49]. كما رافق الثعبان الإله ساتورن على بعض الأنصاب ورأسه مغطّى كرمز للزمن اللامتناهي، وصُوّر أحيانا ملتفّا حول نفسه وهو يعضّ ذيله للدلالة للخلود والحكمة والدائرة السحرية[50]، وبقيت صور الثعابين حاضرة لحد اليوم في الأرياف المغاربية من خلال الوشم والحلي وعلى الزرابي.

6.الخاتمة: بعد أن درسنا الدلالات التي يحملها الثعبان في المغرب القديم يمكن أن نستخلص النقاط الآتية:

- يعتبر الثعبان من أكثر الحيوانات التي تحمل دلالات رمزية متعددة ومتناقضة في نفس الوقت، جمعت ما بين الخير والشر ويمكن تفسير هذا بتعدد أنواع الثعابين: الكبيرة والصغيرة، السامة والمسالمة.

- كان الثعبان من الحيوانات التي قدّستها الشعوب القديمة بما فيها سكان المغرب القديم أو على الأقل بجّلته وهذا خوفا من لدغاته القاتلة، فقد جعلوا منه إلها معبودا يمنح الحماية والرخاء والبركة وخصوبة الأراضي وقطعان المواشي.

- كما كان الثعبان مانحا للصحة والشفاء، ولهذا كان مرافقا لبعض الآلهة خصوصا الإله الفينيقي البوني أشمون، ونظيره الروماني أسكولاب وهم يحملون ثعبانا أو هو يلتفّ على عصا يحملها الإله، علما أنّ هذين الإلهين قد عبدا في المغرب القديم، فضلا عن الإله الإفريقي ماكوركوم الذي صُوّر على نصب الآلهة السبعة.

- كما ارتبط الثعبان بالعالم السفلي بحيث كان يرمز لروح الميت والتجدد والخلود سواء للبونيين أو الأفارقة أو الرومان، وهذا لتغيير جلده بشكل

دوري.

ونشير في الأخير أن عبادة الثعبان قد استمرت طيلة العصور القديمة والوسطى ولم تتمكّن الديانتان المسيحية والإسلام من القضاء عليها باعتبارها عبادات وثنية، ومازالت بعضا من هذه المعتقدات موجودة لحد الآن في بعض الأرياف المغاربية.

7.قائمة المصادر والمراجع:

- المصادر باللغة العربية:

- أوفيد (بوليوس)، مسخ الكائنات، ترجمة: عكاشة ثروت، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.

- هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة: عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2001.

- المصادر باللغة الفرنسية:

- Strabon, Géographie, éditions traduit par Tardieu Amédée, Paris: L. Hachette, (S.D).

- المراجع باللغة العربية:

- أوسوس محمد، دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2007.

- البكري أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،(د.ت).

- بلال موسى بلال العلمي، قصة الرمز الديني، منشورات مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة،2012.

- بورنية الشاذلي وطاهر محمد، قرطاج البونية تاريخ وحضارة، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999.

- سيرنج فيليب، الرموز في الفن والأديان والحياة، ترجمة:عبد الهادي عباس، ط1، دار دمشق، دمشق، 1992.

- فنطر محمد حسين، الحرف والصورة في عالم قرطاج، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999.

- الفرجاوي أحمد، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة، بيت الحكمة، تونس، 1993.

ـ المراجع باللغة الفرنسية:

- Alexandropoulos (J.), Les Monnaies de l'Afrique antique (400 av. J.-C.-40 ap. J.-C.), Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, 2007.
- Belfaida (A.), l'eau au Maghreb antique, Rabat Net, Rabat, 2011.
- Belfaida (A.) et autres, religion et sacré chez Imazighen d'après les sources épigraphiques, institut royal de la culture amzighe, Rabat, 2011.
- Carié (J-M.) et Rousselle (A.), L'empire romain en mutation des Sévères à Constantin (192-337), éditions du Seuil, Paris, 1999.
- Jean-Marie Blas de roblès et Claude Sintes, Sites et monuments antiques de l'Algérie, Sarl édisud, Aix-en Provence, 2003.
- Leglay (M.), Saturne africain, tome I, Boccard, Paris, 1966.
- Lhote (H), les gravures rupestres de l'oued Djerat (Tassili N-Ajjer), tome 2, mémoires du centre de recherches Anthropologiques préhistoriques et ethnographiques , Alger, 1976.
- Prieur (J.), les animaux sacrés dans l'antiquité, Ouest France, Paris, 1988.

ـ المقالات باللغة الفرنسية:

- Ardry (R.), Pour une interprétation ésotérique du symbole de la Coupe et du Serpent. In: Revue d'histoire de la pharmacie, 80e année, n°294, 1992, pp229-290.
- Babelon (E.), Le dieu Eschmoun. In: CRAI, 48e année, N. 2, 1904, pp231-239.
- Benichou Safar (H.), le geste dit « de l'orant » sur les stèles puniques de Carthage, Actas del 3 semnario international sobre Temas Fenicios, Alicante, pp 99-116.
- Benseddik (N.), « Esculape africain », E.B, in *18*, Aix-en-Provence, Edisud , 1997, pp2691-2698.
- Camps-Fabrer (H.), « Génie », E.B, in *20* Aix-en-Provence, 1998, pp3025-3026.
- Camps (G.), Qui sont les Dii mauri ?. In: Antiquités africaines, 26,1990. pp. 131-153.

- Chérif (Z.), une hachette-rasoir inédite du musée national du Bardo, REPPAL, V, 1990, pp62-71.
-D'Huy (J.), Une méthode simple pour reconstruire une mythologie préhistorique (à propos de serpents mythiques sahariens), Cahiers de l'AARS, N° 17, Décembre 2014, pp95-103.
- Le Quellec (J-L.). Nouvelles gravures rupestres du Wâdi Bûzna (Wâdi-L-Ajâl, Libye). In: BSPF, 1985, tome 82, N. 4. pp120-128.
- Picard (C.), les représentations de sacrifice Molk sur les stèles de Carthage, in Karthgo XVIII, 1978, pp5-19.
- Probst-Biraben (J.-H.), Le Serpent, persistance de son culte dans l'Afrique du Nord, In: JSA, 1933, tome 3, fascicule 2, pp.291-293.

- القواميس والمعاجم باللغة الفرنسية:

éditions Zodiaque, Paris, - Beigbeder (O.), Lexique des symboles, 1969.
- Schmidt (J.), Larousse, Dictionnaire de la Mythologie grecque et romaine, éditions France Loisirs, Paris, 2001.

- الأطروحات باللغة العربية:

- أيمن عبد التواب حسن، الثعبان بين الأسطورة والرمز عند الإغريق، أطروحة دكتوراه في التاريخ القديم، جامعة عين شمس، القاهرة، 2008.

- الأطروحات باللغة الفرنسية:

- Zeghal Yazidi (S.), le bestiaire dans l'imaginaire des puniques, Thèse de Doctorat, volume 2, université de Tunis, Année universitaire 2005 -2006.

الهوامش:

[1] - أوسوس محمد، دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2007، ص145.

[2] - Prieur (J.), les animaux sacrés dans l'antiquité, Ouest France, Paris, 1988, p78.

[3] - Zeghal Yazidi (S.), le bestiaire dans l'imaginaire des puniques, Thèse de Doctorat, volume 2, université de Tunis, Année universitaire 2005 -2006, p392 ; Jean Prieur, op.cit, p80.

[4] - سيرنج فيليب، الرموز في الفن والأديان والحياة، ترجمة:عبد الهادي عباس، ط1، دار دمشق، دمشق، 1992، ص ص132 -123.

[5] - Prieur (J.), op.cit, p80.

[6] - Le Quellec (J-L.), Nouvelles gravures rupestres du Wâdi Bûzna (Wâdi-L-Ajâl, Libye). In: BSPF, 1985, tome 82, N. 4, p125.

[7] - هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة: عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي،2001، الكتاب الرابع، 191؛

- Strabon, Géographie, éditions traduit par Tardieu Amédée, Paris: L. Hachette, (S.D), XVII, 5.

[8] - القديسة سالسا هي إحدى القصص المرتبطة ببداية انتشار الديانة المسيحية في المغرب القديم رواها أحد سكان مدينة تيبازة خلال القرن الخامس لكنّها حدثت خلال القرن الرابع وتتعلق هذه القصة بفتاة يبلغ عمرها 14 سنة كرهت مظاهر الوثنية فقامت بتحطيم تمثال من البرونز لإله روماني برأس ثعبان مصنوع من الذهب حيث قامت بإلقائه في البحر، فتُوبعت من طرف الوثنيين وقاموا برجمها بالحجارة وألقيت في البحر، لكن البحر هاج من أجلها وجاء رجل من بلاد الغال وقام باسترجاع الجسم بمعجزة فهدأ البحر، وبعد ذلك دفنت جثّة هذه الفتاة في معبد صغير قرب أحد المرافئ بتيبازة. وباتت بمثابة قديسة لدى المسيحيين.

- Jean-Marie Blas de roblès et Claude Sintes, Sites et monuments antiques de l'Algérie, Sarl édisud, Aix-en Provence, 2003, p52.

[9] - Belfaida (A.) et autres, religion et sacré chez Imazighen d'après les sources épigraphiques, institut royal de la culture amzighe, Rabat, 2011, p99.

[10]- ريغولوس (Regulus) هو قنصل روماني لسنة 265 وسنة 255 ق.م، كلف بغزو قرطاج سنة 256 ق.م أثناء الحرب البونية الأولى (241-264 ق.م)، وتم أسره من قبل القائد الإسبرطي اكسنتيبوس الذي كان يعمل في صفوف الجيش القرطاجي وقيل أنّه أُعدم بعد تعذيبه، انظر: فنطر محمد حسين، الحرف والصورة في عالم قرطاج، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999، ص335.

[11] - Camps (G.), Qui sont les Dii mauri ?, In: Antiquités africaines, 26,1990. P128.

[12]- البكري أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،(د.ت)، ص ص173-174

[13] - أيمن عبد التواب حسن، الثعبان بين الأسطورة والرمز عند الإغريق، أطروحة دكتوراه في التاريخ القديم، جامعة عين شمس، القاهرة، 2008، ص ص105-157.

[14] - D'Huy (J.), Une méthode simple pour reconstruire une

mythologie préhistorique (à propos de serpents mythiques sahariens), Cahiers de l'AARS — N° 17 — Décembre 2014, p. 95.

[15] - Lhote (H), les gravures rupestres de l'oued Djerat (Tassili N-Ajjer), tome 2, mémoires du centre de recherches Anthropologiques préhistoriques et ethnographiques , Alger, 1976, p148.

[16]- Lefebvre (G.L.), Corpus des gravures et peintures rupestres de la région de Constantine, (M.C.R.A.P.E), Paris, 1967, pp183-196.

[17]- التوفات مصطلح مأخوذ من التوراة التي تحدثت عن مكان يحمل اسم (تفت) يوجد في واد حنون قرب القدس حيث كانت يتم فيه تقديم الأطفال كقرابين، وصارت تطلق في العالم البوني على الفضاءات المقدسة أي المعابد غير المسقوفة، ويضع فيها المتعبّون النذور المقدمة للآلهة، للمزيد انظر- بورنية الشاذلي وطاهر محمد، قرطاج البونية تاريخ وحضارة، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999، ص ص280-281.

[18] - Zeghal Yazidi (S.), op.cit, pp396-398.

[19] - Alexandropoulos (J.), Les Monnaies de l'Afrique antique (400 av. J.-C.-40 ap. J.-C.), Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, 2007, pp370-389.

[20] - Zeghal Yazidi (S.), op.cit, pp396-398.

[21] - Leglay (M.), Saturne africain, tome I, Boccard, Paris, 1966, p211.

[22] - Belfaida (A.) et autres, op.cit, p90.

[23] - Camps-Fabrer (H.), « Génie », E.B, in *20* Aix-en-Provence, 1998, pp3025-3026.

[24]- أيمن عبد التواب حسن، المرجع السابق، ص149.

[25] - Probst-Biraben (J.-H.), Le Serpent, persistance de son culte dans l'Afrique du Nord, In: JSA, 1933, tome 3, fascicule 2, pp.291-293.

[26] - كان الثعبان رمزا للشفاء وكذلك للصيدلة حاليا، فكلمة الصيدلة بالفرنسية (pharmacie) مثلا مشتقة من الكلمة الإغريقية (pharmacon) التي تعني السم، والذي كان يستخرج من الثعابين ويستخدم في صنع بعض الأدوية، للمزيد انظر: -بلال موسى بلال العلمي، قصة الرمز الديني، منشورات مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة،2012،ص ص139-140.

[27]- أيمن عبد التواب حسن، المرجع السابق، ص ص151-157.

- المرجع نفسه، ص 157.[28]

[29] - **هيجي**: (Hygie) ربة الصحة ابنة أسكليبيوس إله الطب وحفيدة الإله أبولون، برزت في هيئة عذراء ذات ثوب طويل، كانت تعالج المرضى البشر وكذلك الحيوانات، تبرز في النقوش والتماثيل وهي تحمل ثعبانا الرمز الجهنمي (chthonien) الذي يُعتبر من أشهر رموزها، وقد برزت على الكثير من الصُوّر خلال العصور القديمة وهي تُرضع الثعابين، ويُعتبر اليوم الشعار العالمي للصيدلة، حيث نرى الثعبان ينفث سمه في كأس الذي سيُحوّل إلى دواء، للمزيد انظر:

- Schmidt (J.), Larousse, Dictionnaire de la Mythologie grecque et romaine, éditions France Loisirs, Paris, 2001, p98 ; Ardry (R.), Pour une interprétation ésotérique du symbole de la Coupe et du Serpent. In: Revue d'histoire de la pharmacie, 80e année, n°294, 1992. pp. 289-290.

[30] - **أسكولاب**: (Esculpape) لما اجتاح وباء الطاعون مدينة روما سنة 293 ق.م وقتل الكثيرين وعجز الأطباء عن إيجاد الدواء الشافي، قام الرومان بنصيحة من عرافي المدينة بطلب الشفاء من الإله أسكليبيوس الإغريقي فأرسلت بعثة إلى مدينة أبيدور الإغريقية الذي جلبوه في شكل ثعبان تجسيدا للإله وشيّدوا له المعابد ومن هنا انتشرت عبادته في مختلف أرجاء إيطاليا، للمزيد انظر:أوفيد (بوليوس)، مسخ الكائنات، ترجمة: عكاشة ثروت، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص ص544-548؛

- Carié (J-M.) et Rousselle (A.), L'empire romain en mutation des Sévères à Constantin (192-337), éditions du Seuil, Paris, 1999, p377.

[31] - Schmidt (J.), op.cit, p98.

[32] - Bel Faida (A.), l'eau au Maghreb antique, Rabat Net, Rabat, 2011, p25.

[33] - Benseddik (N.), « Esculape africain », E.B, in *18*, Aix-en-Provence, Edisud , 1997, p2692.

[34] - الفرجاوي أحمد، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة، بيت الحكمة، تونس، 1993، ص177.

[35] - Benseddik (N.), op.cit, p2694.

[36] - Zeghal Yazidi (S.), op.cit, pp335-338.

[37] - Babelon (E.), Le dieu Eschmoun. In: CRAI, 48e année, N. 2, 1904, P.232.

[38] - Camps (G.), op.cit, pp141-142

[39] -Picard (G-Ch.), les religions de l'Afrique Antique, libraire Plon, Paris, 1954, pp22-24.
[40] - Benseddik (N.), op.cit, p2696.
[41] - Belfaida (A.), op.cit, p56.
[42] - أيمن عبد التواب حسن، المرجع السابق، ص ص135-157.
[43] - حاول الكثير تفسير علامة رفع اليد نحو الأعلى والتي غالبا ما تكون اليد اليمنى والتي انتشرت على عدة أنصاب في العالم السامي، فاعتقد البعض أن تلك الحركة تتعلق بالصلاة والبعض الآخر رأى فيها إشارة للعبادة والبعض اعتقد أنها حركة أداء يمين العبادة من الكاهن أو صاحب القربان نحو الإله، للمزيد انظر:
- Benichou Safar (H.), le geste dit « de l'orant » sur les stèles puniques de Carthage, Actas del 3 semnario international sobre Temas Fenicios, Alicante, pp 99-116.
[44] - Zeghal Yazidi (S.), op.cit, pp469-473.
[45] - Picard (C.), les représentations de sacrifice Molk sur les stèles de Carthage, in Karthgo XVIII, 1978, p7.
[46] - Beigbeder (O.), Lexique des symboles, éditions Zodiaque, Paris, 1969, pp384-385.
[47] - Chérif (Z.), une hachette-rasoir inédite du musée national du Bardo, REPPAL, V, 1990, p61.
[48] - Picard (G-Ch.), les religions de l'Afrique antique, pp113-187.
[49]- Zeghal Yazidi (S.), op.cit, p472.
[50] - Leglay (M.), op.cit, p9.